

واقفاوة الجزائرية



بقيام عثمان سعدي

مدخل :

ظهر اصطلاح : فولكلور Folk-lore في المجلة الانجليزية Athé nocum عدد اغسطس سنة 1846 . واصطلاح فولكلور يتكون من كلمتين انجليزيتين : Folk ومعناها شعب ، و Lore ومعناها علم ، والمدلول العام لكلمة فولكلور هو : « علم الادب والتقاليد والآداب الشعبية » (1) فهو يتناول كل ما يتصل بالتراث الشعبي المتجاول مع مشاعر الغالبية العظمى للشعوب : من اساطير شعبية ، وازجال ، وازياء ، ونقوش ، وموسيقى شعبية وغناء ورقص شعبيين ، يتناولها بالجمع والتحليل ، واستنباط كل ما هو انساني عام من ناحية ، وشعبي خاص من ناحية اخرى .

وبالرغم من ظهور كلمة : فولكلور سنة 1846 ، فان الاهتمام بالتراث الشعبي سبق هذه السنة بكثير ، لان الفنون الشعبية لا تعتبر شيئا جديدا في تاريخ الانسانية بل انها كانت الفنون الوحيدة التي خلقت مع الفكر الانساني على مسرح الحياة ، وسايرت تطور هذا الفكر ، وعبرت عن الجماعات الانسانية قبل ابتكار الكتابة .

ونشأت النخبة المثقفة في المجتمعات الانسانية على اثر ابتكار الكتابة ، واكتسبت هذه النخبة الطابع الطبقي ، واصبحت تعبر عن حياة فئة قليلة من الجماعات الانسانية : فئة المتعلمين . وسارت الفنون الشعبية - عند ظهور هذه النخبة - في مجرى اخر ، واستمرت في القيام برسالة التعبير عن الجماعات الانسانية والتجاوب معها . وتطورت الفنون الطبقيّة الى ان وصلت قمة البعد عن الحياة والواقع ، وبلغت اعلى نقطة في التجريد والانحلال ، ثم بدأت ترجع الى الحياة والى الواقع الاجتماعي ، وصار مفكرو الانسانية يبحثون عن موارد واصول تربطهم بحلقات سلسلة تطور الشعور الشعبي والفنون المعبرة عنه التي فصلتها عنهم هذه المرحلة التجريدية . وهكذا ظهر الفولكلوريون او الباحثون عن هذا التراث الشعبي ، المنقبون عن دقائمه .

ان علم الفولكلور ليس ابتكارا في الفنون البشرية ، وانما هو طريقة من طرق البحث التي تنقب عن الدقائق من الفنون الشعبية ، هذه الفنون التي تقربنا من معرفة خبايا النفس البشرية ، وكيف كانت في الماضي ، والمراحل التي مرت عليها في تطورها ، ثم كيف نستطيع ان نؤسس فنا انسانيا جديدا يتخذ كنوز هذا التراث الشعبي العريق في الاصاله قاعدة له .

يرجع تبلور الاهتمام بالفنون الشعبية الى مرحلتين : اما المرحلة الاولى فهي الفترة التي تم فيها انفصال القوميات الاوروبية عن الكتلة اللاتينية الرومانية . فانتصار اللغات الاوروبية الشعبية عن اللغة

اللاتينية الرسمية يعد انتصارا للفنون الشعبية على الآداب التقليدية . لقد كانت اللغات الاوروبية - قبل انتصارها - عبارة عن لهجات دارجة تستعملها غالبية الجماعات الاوروبية للتعبير عن مشاعرها وعقائدها وارهاساتها الانسانية البعيدة ، في قوالب فنية بسيطة كالاسطورة والاحدوتة ، والامثال والحكم ، في قوالب فنية بسيطة كالاسطورة الماتم، والمغنين في الاعراس ، الا انه بالرغم من سيادة لغة الشعب على لغة الاقلية الرسمية في مرحلة الانفصال ، فان التراث الشعبي لم ينتصر على العقلية التجريدية الا في حدود ضيقة للغاية، لان الفكر الاوروبي اخذ من التراث الشعبي لغته تم طورها وطوعها للتعبير عن الفلسفة اللاهوتية ، وعن ترجمة الفكر اليوناني .

وهكذا اخذ الفكر الاوروبي من الشعب دون ان يأخذ تراثه الثقافي ، وشيئا فشيئا اصبحت هذه اللغة رسمية تدرس في المدارس وتعتبر عن افكار فوق المستوى الفكري لغالبية الشعب ، وعن ادب صالوني قصري ، يعكس حياة طبقة ضيقة الافق صغيرة الحجم منحلة الشخصية . اما غالبية الشعب فقد بقيت تعبر عن مشاعرها وأذواقها الساذجة بلهجاتها المحلية .

واما المرحلة الثانية فهي الفترة التاريخية التي بدأ فيها نجم الطبقة الاسترطراطية الاوروبية يتحدر نحو الغروب . وبدأ نجم الطبقة البورجوازية يظهر في افق اوروبا ، واصبح لهذه الطبقة الاخيرة كتاب وفنانون ومفكرون يمجدون الذوق الاسترطراطي المتصنع ، ويتخلصون من التفكير اللاهوتي الميتافيزيقي ، ويتوقفون الى حرية فكرية واجتماعية تخلص الطبقات الشعبية الدنيا من اضهاد الطبقة الاسترطراطية ، ومن سلطة وتحكم الكنيسة البشع . فراح هؤلاء الكتاب الذين ملوا المتصنع يعجبون بالجمال الساذج للفن الشعبي ، ويتأثرون به ، وينعكس هذا الاعجاب وهذا التأثر في روائعهم الفنية . فموليير مثلا ، (1622 1673) خلق في كوميدياته شخصيات مستمدة من الواقع متجاوبة مع ذوق الطبقات الشعبية الدنيا ، مما جعل ناقدا كسانت بوف يقول عن بساطة هذا الفنان واقعيته : « ان كل انسان يعرف القراءة يعتبر قارنا لمولير » (1) .

بدأ جمع التراث الشعبي والاهتمام به مع بداية القرن الثامن عشر . ففي سنة 1711 ظهر في مجلة : Addison الانجليزية عدد 74 - 75 ، اعجاب Chevy-Chay بما رواه له احد اصدقائه من كلام احد المتسولين . وجمع Ballard اغاني شعبية في ديوانين ، احدهما ظهر سنة 1711 والاخر ظهر سنة 1724 . بل ان W. Scott الكاتب الانكليزي المشهور ، جمع قبل ظهور قصصه ديوانا عن الاغاني الشعبية . سماه : « الاغاني الشعبية للحدود

(1) قاموس « لاروس »

(1) دائرة المعارف الفرنسية ج 17 مادة Folk-lore

وهذه المجالس المحلية والمجالس القومية ، والمعاهد الفولكلورية تستطيع ان تجمع بين المحافظة على تراثنا الشعبي - الذي تكمن في خباياه خطوط شخصيتنا ، والصراع الذي وجد بين هذه الشخصية وبين شخصية اخرى غريبة عن وطننا - من ناحية ، ولحفاظة على توحيد التعبير اللغوي مع ربطه بمعترك الحياة في كل اجزاء الوطن العربي ، من ناحية اخرى . وبهذه الطريقة وحدها يمكن ان نخلق كتابا يكتبون وفنانين يبدعون للجموع ، ويعكسون في فنهم اذواق ومشاعر الجماعات ، وآثار تسلسل تراثنا الشعبي البعيد ، ويتجاوزون مع كل الطبقات الشعبية ، لا مع طبقة واحدة تمثل اقلية ضئيلة من الشعب .

اما اذا بقينا نتبع هذه الوسائل في بناء ثقافتنا ، فيمكن ان نقيم ثقافة عظيمة وفنا هائلا ولكنها ، خاليان من العنصر الشعبي ، غير متجاوبين مع كل الطبقات الشعبية ، متعددين من اهم حلقة من سلسلة تاريخنا تصل بين انحطاط الحضارة العربية ، وتيقظ الشعوب العربية من جديد ، وتحتوي على الصراع بين شخصيتنا وبين الشخصية الاوروبية الغازية ، وعلى المراحل التي نشأت فيها الوطنيات العربية ، وتبلورت اثناءها القومية العربية .

ان كل ما تحتوي عليه هذه الحلقة المفقودة من تاريخنا موجود ولكنه لا يوجد في اسفار الكتب او على شرائط واسطوانات التسجيلات الصوتية فقط ، لان جزءا كبيرا مما تضمه الاسفار او تكسه الاسطوانات عبارة عن عمل فني وثقافي يشوّه التقليد الزائف والتصنع المفضوح - وانما يوجد بين افواه الرواة الشعبيين قبل بلهجات شعبية محلية . ولكي نستطيع ان نقيم فنا عربيا شرعيا ، وثقافة عربية كاملة ، فلا بد

الاسكتلندية » . وقد عم الاهتمام بجمع الادب الشعبي كل البلدان الاوروبية ، ففي ألمانيا نشر Herder ديوانه « اغاني التجمعات المتوحشة (1778) » وفي فرنسا وجه الكتاب : G. Sand E. Souvestre, P. Feval عناية كبيرة الى جمع اغاني واساطير شعبية منشورة في منطقة البروتان La Bretonne (1)

اذن فالاهتمام الحقيقي بالتراث الشعبي بدأ مع ظهور الطبقة البورجوازية وتأثر ادباؤها وفنانوها بهذا التراث ، بعد ان ملوا ذوق الطبقة الارستقراطية المتصنع ، واصبحوا يقبلون على الاذواق الشعبية البسيطة الساذجة ، ويتجاوزون مع مشاعرها ، ثم تطور هذا الاهتمام بالتراث الشعبي من التأثر والاستلهاً الى الجمع والتحليل ، منذ بداية القرن الثامن عشر .

اما في عصرنا الحاضر فقد بلغ الاعتناء بالتراث الشعبي شأوا بعيدا في كتلة الديمقراطيات الشعبية والاتحاد السوفياتي ، التي سادت فيها الطبقات الشعبية الدنيا . فقد اصبحت القوالب الفنية في هذه البلدان كالسينفونية والوبرا والباليه في الفناء ، والرقص والموسيقى ، والقصة والقصيدة والرواية في الادب ، اصبحت كلها مشحونة بأحاسيس ومشاعر شعبية متجاوبة مع الملايين من الفلاحين والعمال ، معبرة عن شتى المظاهر الاجتماعية بأسلوب فني رائع .

كيف نجمع تراثنا الشعبي في وطننا العربي ؟

ان اللغة العربية قد اجتازت المرحلة الخطيرة على حياتها واصبح انتصارها على لهجاتها امرا مفروغا منه ، اذا عرف ابناءؤها كيف يسيرون بها حسب سنة التطور ، ويتعدون بها عن كل ركود مميت ، ويدخاونها الى صميم معركة الحياة .

ولكي نجعل اللغة العربية تنتصر وتسدود وتصبح لغة حياة يجتمع عندها كل اجزاء الوطن العربي ، فيجب ان نخلق نوعا من الاحتكاك بينها وبين اللهجات العامية ، وهذا الاحتكاك وهذه السيادة يتحققان بتخطيط تعليمي وثقافي يتفق عليه المسؤولون عن التعليم والنشاط الثقافي في كل اجزاء الوطن العربي . ولعل كل واحد منا يمكن ان يتصور الخطوط العامة لهذا التخطيط ، فمثلا تنشأ مجالس او اكاديميات محلية في كل جزء من اجزاء الوطن العربي ، ومجالس اخرى عامة تجمع بين مندوبين عن كل بلد عربي .

فاما المجالس المحلية فتعمل على جمع كل التراث الادبي الشعبي : من زجل وامثال وحكم واساطير ، وتأخذ منها الالفاظ التي طوعها الاستعمال الحيوي وتضعها في القالب العربي . وتنشيء وزارات المعارف في اجزاء الوطن العربي فروعاً لدراسة الادب الشعبي وتاريخه ونصوصه ، مع توضيح الهدف الرئيسي من دراسة هذا الادب والتقارب الموجود بين الاداب الشعبية في كل اجزاء الوطن العربي (2) ترسل هذه الوزارات البعثات الى البلدان التي خُطت شوطا كبيرا في دراسة الفولكلور ، وتنشيء كذلك معاهد فولكلورية .

(1) دائرة المعارف الفرنسية ج 17 مادة Folk-lore

(2) يوجد تشابه كبير بين الفنون الشعبية في كل بلدان المروية . ولقد وجدت هذا التشابه بين بعض المواويل والاجال المصرية والجزائرية . فمثلا التعبير المشهور في الاغاني الشعبية المصرية : « الباب يخبط ، روحي يا ام حلي له » يوجد بنصه تقريبا في الاغاني الشعبية الجزائرية : « الباب يطبطب واجري يم حلي له »

ظهر حديثا :

المدخل الى التربية التجريبية

للككتور عبد الله عبد الدائم

في طبعة ثانية مزيده ومنقحة

يطلب من دار العلم للملايين وسائر المكتبات الكبرى

ان نجتمع تراثنا الشعبي ثم نختر منه التماثيل والروائع فنلغنها لاطفالنا في المدارس ، وندرسها لشبابنا في الجامعات ، حتى يمكن لجيل عربي جديد ان ينشأ على حب الازجال والرقص الشعبي ، والاغاني الشعبية ، ثم يعكس ما في روائعها من شحنات فنية هائلة على ما يكتبه ويبدعه .

الادب الشعبي والمقاومة الجزائرية

ان مقاومة الشعب الجزائري لجيش الاحتلال الفرنسي تعتبر من الروائع الخالدة في تاريخ الانسانية ، فقد استمرت هذه المقاومة من سنة 1830 الى سنة 1962 ، سقطت البلاد اثناءها في يد الفرنسيين شبرا شبرا . وتعشق الجزائري للحرية هو السبب في استمرار مقاومته لجيش الاحتلال الفرنسي وهو السبب ايضا في عدم استطاعة الاتراك - رغم العامل الديني الذي يربط بينهم وبين الجزائريين - السيطرة على البلاد الجزائرية ، فحكمهم لم يتعد سدس البلاد ، وحتى هذا الجزء كان كالبركان يهز الارض تحت اقدامهم بين اونة واخرى .

وكانت الخمسة اسداس الاخرى المستقلة عن الحكم التركي تتمتع بديمقراطية سياسية ، وبعدالة اجتماعية ، فهي موزعة بين جمهوريات قبلية تضمن للفرد حياة حرة كريمة ، وان كانت بسيطة ساذجة . وكان نظام ملكية الارض الجماعية هو المطبق في هذه الجمهوريات : فالفرد والاسرة لهما حق الاستثمار وليس لهما حق الملكية ، لان الارض ملك للقرية . ويعتبر هذا النظام اشتراكية بسيطة ، لانه لا يبيع بيع الارض ، ويحول دون تركيز الارض بين ايدي الغامرين الشرهين ، ونشوء الاقطاعيات وتكوين الفروق الطبقة .

وهذا النوع من الملكية العقارية هو الذي جعل المقاومة الجزائرية ضد جيش الاحتلال تطول ، فالفلاح الجزائري عندما يقاوم يشعر انه يدافع عن ارضه لا عن ارض اقطاعي معين ، وهذا جعل كل قرية تدافع عن ارضها دفاعا مستميتا . الا ان فشل هذه المقاومة العنيفة امام جيش الاحتلال راجع الى تجزئة المقاومة ، فكل قرية كانت تدافع عن ارضها بمفردها دون ان تكون جبهة مع القرى المجاورة .

وقد تفتى ببطولات هذه المقاومة شعراء شعبيون ، وردد غنائهم ملايين من الفلاحين الجزائريين ، ولكن مرور الزمن ، وعدم اهتمام ، وتجاهل المستشرقين الفرنسيين لهذا النوع من الادب جعله يضع ، ما عدا بعض القصائد التي جاءت مبثورة في دواوين بعض المستشرقين ، كالقصيدة التي قيلت في ثورة اولاد سيدي الشيخ سنة 1864 والتي جاءت ضمن المجموعة التي جمعها المستشرق الفرنسي « سونك » في ديوانه : « ديوان المغربي في اقوال افريقيا والمغرب » .

وثورة اولاد سيدي الشيخ هذه ثورة شعبية قامت بها القبائل المقيمة في جنوب « وهران » بقيادة طريقة « اولاد سيدي الشيخ » ، واستمرت خمس سنوات واخذت كما اخذت الثورات الجزائرية العديدة .

وقائل القصيدة احد الشعراء الشعبيين الجهوليين من مدينة « الاغواط » ويفتتح الشاعر قصيدته بالتفني « بمعركة الشلالة » التي انتصر فيها الثوار على جيش الاحتلال وقتلوا فيها قائد الحملة وحاكم دائرة البيض الكابتن « بوران - بويسان » . يقول الشاعر : « يا من حضرت خبرنا عما دار في يوم الشلالة ، هذا اليوم المحدود ضمن الايام الخالدة في الزمن ويا من حضرت هذا اليوم انك لاسعد السعداء » :

يا الحاضر عود لخبار واشتاه صار على انهار الشلالة في الزمان محدود سعد من حضر في ذاك انهار محدود

ثم يمجّد الشاعر ابناء هذه الطريقة الصوفية التي قادت الثورة فيقول :

« لو لم يكن ابناء حمزة لبعض بوران مسيطرا ، وعندما نادى رب العزة جاء محمد وسليمان ، فكف قيد الناس وشرح الاديان (اي اiban للناس جوهر الدين الذي يامرنا بطرد الكفار من ديارنا) ، ثم يشبه قائد الثورة بالسارية التي يقام عليها البناء ، وبالساقية التي تسعى الاجنة :

لو ما ذرية حمزه لسوا بقى ملكها بوران

امينين نادى رب العزة جا محمد وسليمان

فك لعباد من اللزة قام بها واشرح الاديان

اعليه متكلين اركيزة ساقية تروى كل جنان

ثم ينتقل الى وصف موت القائد الفرنسي فيقول : « لقد جعل منك سيدي مسخرة والقبائل شهود فحصروك في البيضاء (مكان) كالجرذان يا بوران ، وعندما كان حصينك منهوكا هربت وغلقت الباب وراءك . لقد اضطرت الاصحاب الى ان تشرب من ماء السياخ المالح ، ومروا بك على الخضراء (اسم مكان) وانت غائب ، ومهشم بالحديد فانظر ماذا صنع لك الاصحاب : الشحم فوق السهل ساح ورويت منه الطيور واسراب الذباب والنسر اكل الى ان داخ ومعها الحداة والغراب . والصبغ سلخ جلدك اكل من لحمك الى ان شبع ، ثم ادخر الباقي في الشعوب وبالقفاف . ما اجمل جلد هذا القفاء لترقيق الاحذية :

دارلك سيدي كلخمه والقبائل شهود قطعوك في البيضاء كالجرذان يا بوران
منين كان عويدك لتساخ كنت هارب واغلقت الباب
كنت تشرب من ما اسباخ جوزوك على الخضراء غاب
بالحديد ميخ ميساخ شوف ما داروك لصحاب
الشحم فوق الوطيه ساح الطواير شبت وادباب
النسر اكل وداك داخ والحداية هي واشراب
الصبغ في جلدك اسلاخ بالعدل يخزن في الشعب
مزبان القفده للتملاخ كالقفاف يعجب للسرفاب

وبعد ان يتعرض الشاعر الى تفاصيل المعركة يختتم قصيدته بقوله : « لقد رمل لك العلجات ، واين تنجو يا ابن الزواف (اسم فرقة في الجيش الفرنسي) . وماذا دهالك الى ان تركب هذا المركب الصعب ، فتلعب الهنا مع العراف (مثل شعبي ضمنه الشاعر عجزيته ونصه الكامل : ما تلعب الهف مع العراف . اي لا تحول ان تبين عن مهارتك في النشل امام محترفه) :

فباع هجلك العلجات وين تمنع يا ابن الزواف
واش لذك للضايقات تلعب الهف مع العراف(1)

ان الصديق ليشع من هذه القصيدة فكل كلمة منها ناطقة معبرة عن احساس الشاعر المتقد . والروح الشعبية كامنة في تعابيرها وامثالها المتداولة بين الناس المنسجمة مع سياق الابيات : فكلما « كلخة » و « عويدك » (تصغير عود ومعناه الحصان) ، وجعل الصبغ يدخر اللحم بالقفف في الشعب ، وجمال اديم القفن الذي يفري على استعماله في ترقيق الاحذية « كلها تعبر عن البساطة والسذاجة الشعبية وعن هذه السخرية الحادة والاحتقار الشديد اللذين يكنهما الفلاح الجزائري لجيش الاحتلال .



ويبدأ الصراع بين الشخصية الجزائرية والشخصية الفرنسية ، فالفرنسيون بعد ان استتب لهم الامر في بعض المناطق ، راحوا يجندون كل قواهم ووسائلهم السيكلوجية والفكرية لتحطيم معالم الشخصية الجزائرية في كيان المواطن ، واحلال معالم الشخصية الفرنسية محلها :

(1) ديوان المغربي في احوال افريقيا والمغرب (سونك)

فتحت ابواب الهجرة الى البلاد الجزائرية امام الفائض من سكان البلدان الاوروبية ، وانها على الجزائر مئات الالاف من الممارين الاوروبيين ليستوطنوا هذا البلد العربي الفني . ورات الادارة الفرنسية ان طاقة المقاومة ومقومات الشخصية الجزائرية تكمن بوضوح في اعماق الفلاح الجزائري ، فاتخذت كل الوسائل للقضاء على هذه الطاقة ، ولتفتيت هذه المقومات . وانتبهت الى الخطر يكمن في النظام الاقتصادي السائد بين القبائل والقرى ، في ملكية الارض الجماعية ، وما ينتج عنها من تكامل وتعاون بين سكان هذه البلاد ، وتماسك واتحاد بين القبائل والقرى .

الم تكن اعباء المقاومة العنيفة لمقاة على كواهل الفلاحين ؟ الم يكن السبب في قيام الفلاح بهذا النوع من المقاومة الغذ هو ملكية الارض الجماعية ؟ فكر الفرنسيون في هذه المسائل وهم يضعون الاسس الاولى لسياستهم التي تستهدف القضاء على الشخصية الجزائرية ومحو معالمها وجعل هذا الوطن المتهور الفني الواسع التحكم في جنوب البحر المتوسط وشمال ووسط افريقيا امتدادا لفرنسا . وهكذا راح الفرنسيون يضيقون الخناق على الفلاحين الجزائريين ، فافتكت منهم ارضهم ثم سلمت الى المهاجرين الاوروبيين ، وصدر مرسوم بتحويل ملكية الارض من ملكية جماعية قروية الى ملكية فردية عائلية ، حتى يتسنى للمستعمرين القضاء على جبهة الفلاحين ، وروح التعاون والتكتل بينهم .

ولم يقف الجزائريون مكتوفي الايدي ، بل قاموا بردود فعلية ايجابية احيانا وسلبية احيانا اخرى . ونبه بعضهم الاخر الى الخطوط الاستعمارية التي تستهدف القضاء على مقوماتهم الوطنية . وساهم الادب الشعبي مساهمة فعالة في المحافظة على هذه المقومات .

وها هو الشاعر الشعبي «قدورين عمار» المشهور «بقدور الحدي» في مدينة «الجزائر» ينظم قصيدة طويلة في انتقاد جماعة من المشعوذين والالانية اخذهم احد الفرنسيين الى فرنسا لكي يعرض شعوتهم وشطحاتهم على مسارج باريس .

والحقيقة ان هذه القصيدة التي وصلتنا من هذا الشاعر تعتبر قطعة فنية رائعة بأسلوبها التهكمي العميق وتصايرها الشعبية البسيطة ، ومرايمها البعيدة . فهي تخلق في نفس قارئها احتقارا لهذه الجماعة ولكل من انساق وراء المفريات الاستعمارية ، ونسي شخصيته ووطنه .

يفتح الشاعر قصيدته بوصف الزلزال والمجاعة والوباء التي انتشرت في البلاد سنة ١٨٦٧ . فقد هدم الزلزال كل القرى بين مدينتي «شرشال» و «البليدة» واتلفت اسراب الجراد كل المحصولات الزراعية ، وانتشر الوباء والقحط :

اجي تشوفا ماذا صار في ذا القام المظنار
الزلزله هدت الديار ايفات تردهم وطئه
حتى لمرار والطيبار ما خلاش حتى حيه
ثم يصف بعد ذلك الحالة النفسية لهذه الجماعة عندما تقرر سفرها الى باريس : « فعندما بلغهم خبر السفر فقدوا صوابهم وصاروا يصرخون من شدة الفرح ، ويجرون ، احدهم حافي القدمين والاخر لابس لحذائه . ان الله قد اهانهم في الدنيا » ، ويذكر اسم الفرنسي الذي اصطحبهم وكيف ركبوا جميعا الباخرة وبدأ واحد منهم يشعر بدوران البحر :

سهموا بسفر اغنيادوا ابدوا يجربوا وبعابطوا
شي حفيان وشي بصباطو رب اغبتهم في الدنيا
الرومي اسمه السلفدور هو ركبهم في البابور
بدوا حد قلبه يدور فال جيت نتقيا
ثم يكشف عن الغرض من تسفير هذه الجماعة الى باريس فيذكر زيارة

السلطان التركي عبد العزيز للبلاد الفرنسية ، وعزم نابليون الثالث على تكريم السلطان بعرض مناظر من الفن الشرقي امامه . ثم يذكر الشاعر كيف كان هذا الفرنسي يهين افراد الجماعة ، فيتخذ من الاصطبلات مساكن لهم ويسوقهم امامه كما تساق لحيوانات . لقد صاروا كقطعان البقر ولا ينقصهم سوى الرعاة :

راحوا قاصدين لباريس ياش يلقوا عبد العزيز
وقفهم الرومي كيف ابريز بين البحر والكنيسة
يرقدهم بالتعزيز يديهم للساسية

★

حسبهم الرومي في كوري يخرجهم بالكوميانية
ردهم يشبهو للبقرى تحصمهم غير المحاحية
ثم يصف كبير الزمارين وصفا تهكميا لاذعا فيقول : « ان كبير الزمارين المخرف الذي له لحية اشد بياضا من الصوف ، قصد باريس يا نهاره في النار .. واذا رجع مفضوحا سيبقى شائعات في الدنيا » :

كبير الزرناجية المخروف اللي لحيه ابيض من الصوف
قصد لباريس يشوف يا اتهاره في الحاميه
واذا رجع كالكشوف يقى شوايع في الدنيا (١)

ان ثقافة الشاعر الشعبية هي التي عمقت نزعة التهكم عنده ، فهو كما يبدو ملم بالامثال والتشبيهات والوصاف والتعابير الشعبية ، التي جعلت شعره خاليا من اسلوب الهجو الخشن . انه يمسح مهجونه مسخا فظيحا بأسلوب جميل وبسيط دون ان يلجأ الى السب والشتم المباشر . انه يجعل القارئ يحقر المهجو وهو ضاحك منشرح . والسبب في سمو هذا الشعر التهكمي هو التعابير الشعبية التي استعملها الشاعر مثل : (العام الطيار .. رب اغبنهم في الدنيا .. يديهم للساسيه .. تحصمهم غير المحاحية .. يا اتهاره في الحاميه .. شوايع في الدنيا) ان الحدة التي توحى بها هذه التعابير تشبه لدغ العقرب التي تطلق سمها دون ان تحدث ضجة .. ان هذا الاسلوب الشعبي التهكمي الذي جمع بين البساطة والعمق هو الذي جعل معاصري هذا الشاعر يطلقون عليه اسم : موليير الجزائر .

★

وتكتشف الادارة الفرنسية مدى تغفل العقيدة الدينية في نفوس

(١) ديوان المغربي في احوال افريقيا والمغرب (سونك)

صدر حديثا :

فصول سياسية

دراسات عميقة في المشكلات السياسية المعاصرة
في العالم العربي

تأليف

خلدون ساطع الحصري

سيده الى ارادة الافدار ، ويجعله مسطورا مكتوبا قبل تحققة في الواقع :

مصدره ربي كداتو محوبي ما يعرف ذا البر ما ضاري عشييه هذه الخطرة سبقت له في القدره هذا القدر من خالقي مكتوب عليه(1)

الادب الشعبي والكفاح السياسي

في سنة ١٩٢٠ ظهر الامير خالد احد ابناء العائلات الكبيرة وبدأ يمنح نضال المدينة المائع الذي يداني افق الجزائر منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر ، فجمع حوله طبقة الموظفين والنواب لتحقيق مطالب متواضعة بسيطة (٢) . ولكن هذه الطبقة البورجوازية التي نشأ ابناءؤها في مدارس المستعمرين وتخرجوا على ايدي اساندة الاستعمار ، تخون خالدا الذي ييأس منها ويكتب عن ابنائها في رسالة وجهها الى صديقه الفرنسي الحر Victor Spilman قائلا : « منذ خمس وتسعين عاما (أي منذ دخول الفرنسيين) وهؤلاء الصبيد (أي البورجوازيون) يتحكمون . ولا تنس ان هذا الجيل المثقف قد ولد تحت نير الاستعمار ، وربى في مدرسة الاستعمار الذي علمه مبادئ الطاعة العمياء » (١) . ثم يسخر خالد في رسالته موضعا عجز ابناء هذه الطبقة عن القيام بدور نضالي حاسم فيقول : « لسوء حظ مثلي ومثلك فان هؤلاء (اي البورجوازيين) لا يملكون من الوسائل ما يحاربون بها جيش الرأسماليين وكبار الملاك الاستعماريين الذين يملكون في ايديهم الذهب والسلطة » (١)

وتنفي السلطات الفرنسية خالدا الى خارج الاراضي الجزائرية ، ويفادر هذا القائد المخلص ارض الجزائر وهو ناظم على طبقة المتسخة واضع آماله في الجماهير الشعبية الكادحة : « ان الجماهير تن تحت وطأة شديدة من الظلم والاضطهاد ، ولهذا فيجب عذرها اذا هي لم تتحرك ولكن هذه الجماهير الجاهلة السلبية الان ، هي التي ستقوم في القدر القريب بدور تحرير نفسها . » (١) .

وتحققت نبوءة خالد ، فقد تكونت منظمة « نجم شمالي افريقيا » في نفس السنة التي غادر فيها الجزائر (سنة ١٩٢٥) .

واستمرت حركة نجم شمال افريقيا العمالية في تنمية الوعي الوطني بين الجماهير الشعبية . الى ان جاءت سنة ١٩٣٧ حيث تطورت واشتد ساعدها واصبحت تحمل اسم : « حزب الشعب الجزائري » وهو حزب ثوري يعتمد على التنظيم السري . واستمر هذا الحزب قويا معبرا عن امانتي الشعب هادفا الى الاستقلال التام عن طريق الثورة المسلحة . وجاءت الحرب العالمية الثانية فبدأ في الافق الجزائري ابناء العائلات البورجوازية وبدأوا يسيطرون على الموقف ويؤلفون الاحزاب ، بل وسيطرون حتى على الحزب الثوري الشعبي الجماهيري ، وكاد هؤلاء ان ينحرفوا بخطط سير النضال الايجابي المعتمد على القاعدة الشعبية ، ولولا محافظة بعض الشبان الثوريين على الايديولوجية الثورية لحزب

— البقية على الصفحة ٧٢ —

(*) ديوان في احوال افريقيا والمغرب (سونك)

(٢) من مقال للاستاذ مصطفى الاشرف بمجلة

عدد اكتوبر سنة ١٩٥٦

الجزائريين ، وكان الاباء الروحيون للجزائريين ، والمحافظون على العقيدة الدينية في ذلك الوقت هم مشائخ الطرق الصوفية ، فتعمل السلطة الفرنسية على خلق صداقة بينها وبين هؤلاء المشائخ ، وتفقد عليهم اللقب والنياشين ، وتخصهم بالامتيازات ، وتحيطهم بهالة من القداسة والاحترام . وسوف تنتج السلطات الفرنسية فيما بعد ، في كسب صداقتهم وتسخيرهم لخدمة اغراضها : كتخدير الشعب والابتعاد به عن كل ما يمكن ان ينتج له فرصة فحص واقعه السيء ، وثورته على هذا الواقع ، وكتوجيه الاهالي نحو الاهتمام بالقيبيات ، وملء فراغهم بالشطحات الصوفية وزيارة اضرحة الاولياء الصالحين .

وبدأت الادارة الفرنسية تعمل على خلق هذه الروابط ، في اواخر القرن التاسع عشر ، وكان اول ما قامت به ، توجيه دعوات الى هؤلاء المشائخ لزيارة فرنسا . وينتبه الشاعر الشعبي ذو الحساسية الخيرة المجربة الى الخطر المحدق بهذه الدعوات .

وهذا شاعر من « اولاد غلال » (دائرة البيض) ينظم منظومة يعبر فيها عن ارتياحه وشكوكه حول استدعاء الحكومة الفرنسية للسيد محمد ابن بلفاسم « شيخ زاوية الهامل » لزيارة البلاد الفرنسية ، ويقال ان السلطات الفرنسية امرت هذا الشيخ بتلبية رغبتها عندما حاول التخلص من الدعوة .

يصف الشاعر خبر الدعوة الفرنسية بالشؤم : « فهو خير لا يرضى عنه احد ، ويؤثر على صحة كل من يسمعه فيضعفها » . ويتدخل الخيال الشعبي فيصور للشاعر سيده وهو يشرب افداح الروم من ايدي الفرنسيين . ثم يذكر الحاح الحكومة الفرنسية في دعوتها ، وكيف كانت ترسل كل يوم موزع البريد حاملا معه رسالة الى الشيخ : يا سيدي مشيان هذا الخبر راهيفي واللي يسمع هذا الخبر ليس يبغيه قالو لي قسوم سربوا اليه الروم من يسمع هذا الخبر ليس يبغيه هذوا النصرى والفواهذه الخطرة كل يوم ينوضوا يوشاط اجيه ثم سرعان ما تغلب نزعة الاستسلام القبي على الشاعر فيرد سفر

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الاربع الاولى من الآداب تباع كما يلي :

مجموعة السنة الاولى	غير مجلدة	مجلدة
٥٠ ل.ل	٤٥ ل.ل	٥٠ ل.ل
»	» ٢٥	» ٣٠
»	» ٢٥	» ٣٠
»	» ٢٥	» ٣٠

الادب الشعبي والمقاومة الجزائرية

- تنمة المنشور على الصفحة ٣٠ -

الشعب الجزائري .

ولم يسكت الادب الشعبي ازاء هذه الاحداث . فهذه منظومة قيلت سنة ١٩٤٤ بمناسبة انعقاد مجلس لجنة الاصلاحات بالجزائر الذي ألفه ودعا لحضوره جماعة من الشخصيات التي تمثل شتى الاتجاهات السياسية والحزبية . وكانت الحكومة الفرنسية هي التي دعت هذه اللجنة الى الانعقاد لكي تتفاوض معها حول مصير الجزائر بعد انتهاء الحرب .

وتكشف هذه المنظومة عن التناقض الموجود بين الاحزاب الجزائرية في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ الجزائر . وهي تضع امامنا برامج كل حزب ، وتشخص لنا شخصية كل زعيم في دقة ومهارة تشوبها الحكمة الشعبية العميقة .

يفتح الشاعر قصيدته بطلب النجدة على لسان الجزائري من الامريكان والانجليز الذين نزلوا شمال افريقيا ، والذين لم ير سكان هذه البلاد شرا منهم ، فيشكو له آلامه وكيف اجاعه الفرنسيون ، وقضوا عليه ، وحاربوا عقيدته ، ويذكر لهم كيف كانت فرنسا متجاهلة لحقوقنا الى ان دارت عليها الدوائر وضيق النازيون عليها الخناق فالتفتت الينا لتمنحنا « ربح جميل » وهو جمعها لايان البلاد لتجس نبضهم .

يا عمى جوني	لفرنسيس راهم ظلموني	بالشر فتلوني
انت سكسوني	سلطوا على الميزريا	(misère) قرب الهوني
لفتنا فئات	ما شفناش منك دوني	قرب الهوني
فرنسا المعهورة	نحكى لك ما صاير بيا	قرب الهوني
جمعت الاعيان	حتى اجو معنا انفرمات	قرب الهوني
	الذكريات كثرت عليا	قرب الهوني
	باعمالها الشيينة مشهورة	قرب الهوني
	تعمل فينا ربح امزريا	قرب الهوني
	جابتهم من كل مكان	قرب الهوني
	ياش ينشاوروا في الحرية	قرب الهوني

وبعد ان ينتهي اعضاء اللجنة المحترمة من خطبهم يأتي دور الممثل الرسمي للحكومة الفرنسية ، فينعته الشاعر بصاحب السعادة ، ويظهر الكبر والفور الذي ينتاب المسؤولين الفرنسيين في الجزائر ، فهو يتكلم في ترفع وكبر وباسلوب ينم عن احتقاره التام لهذه الشخصيات الجالسة امامه ، وبلهجة يفهم منها ان الحكومة الفرنسية كانت تقرأ حسابا مبالغا فيه لهؤلاء الزعماء السياسيين . اما وقد اجتمعوا فانهم لم يمبروا الا عن شيء واحد هو التناقض بين اتجاهاتهم وعدم اتفاقهم على فكرة واحدة ، مما يجعل الحكومة الفرنسية تتراجع الى عجزهم التام عن القيام بأي عمل يذكر :

سينيك سيلانس	مسيو قولو قال سيلانس	بياد كنيونس
ابري لقيير	لزراب كامل حيلية	بياد كنيونس
	رانا ننظر في لغير	بياد كنيونس
	ما نتحكش قولوا لتا	بياد كنيونس

ان هذه القصيدة تعتبر من روائع الادب الشعبي الحديث ، فقائلها استطاع ان يجمع في مقطوعاتها القليلة كل الاتجاهات السياسية الجزائرية موضحا برنامج كل حزب ومحللا لشخصية زعمائها . واللفة التي استعملها الشاعر بسيطة لها مرونة فائقة فهي الى جانب صياغتها لتعابير وأمثال شعبية ، تصوغ جملا فرنسية بأكملها في يسر وبساطة .

الملحمة الشعبية وثورة اول نوفمبر

في سنة ١٩٤٧ بعد ان خرج زعماء الاحزاب بدستور هزيل ، بدأت عناصر البورجوازية تسيطر على الكفاح السياسي في الجزائر ، ولم تقتصر هذه السيطرة على « حزب البيان » البورجوازي الصرف او على جمعية العلماء التي تعتمد في تكوينها على العائلات البورجوازية بل امتد الى حزب الشعب الجزائري ، واصبح لهذا الحزب جناح رسمي ويدعى « حركة انتصار الحريات الديمقراطية » وهو الجناح الذي سيطر عليه ابناء العائلات المثقفون : المحامون والاطباء والاساتذة . والمنظمة السرية (O.S) التي بقيت محافظة على الاتجاه الثوري لحزب الشعب وهو الايمان بالاستقلال وبالثورة المسلحة كوسيلة لهذا الاستقلال .

وهكذا ظهرت الطبقة البورجوازية في الميدان مرة ثانية - منذ ايام الامير خالد - وراحت تتبع طرقا عقيمة في الكفاح للمشاركة في الانتخابات والاحتجاجات والمطالب المائنة . واستمرت قيادة هذه الطبقة من سنة ١٩٤٧ الى سنة ١٩٥٢ حيث بلغ تفسخها القمة .

والسبب في فشل البورجوازية الجزائرية في قيادة الكفاح السياسي راجع الى عاملين : اما العامل الاول فطبيعة البناء العضوي للاستعمار الفرنسي ، فهو استعمار يتنقل الى ابسط مظاهر الحياة الاجتماعية للبلدان التابعة لنفوذه ، وهذا يجعل التخلص منه لا يكون الا بثورة تغلب الازعاج السياسية والاقتصادية والاجتماعية رأسا على عقب . اما الاستعمار الانجليزي فبناؤه العضوي بناء فوقي يحكم البلاد بواسطة جماعة من سكانها ، وهذا هو الذي جعل البورجوازية المصرية مثلا تقوم بدور فصال في تاريخ الحركة الوطنية ، وتنجح في توصيل سفينة الكفاح الى شاطئ السلامة .

واما العامل الثاني فهو عدم مرونة هذه الطبقة في مسابرة سنة التطور ، وجهودها وسط الطريق الذي رسمته لكفاح الشعب الجزائري في سبيل استقلاله ، فقد اصبح لهؤلاء الزعماء البورجوازيين مصالح اديبية وامتيازات مادية مرتبطة بالنشاط السياسي . ولم يستطيعوا التغلب على اتانينهم ومصالحهم الشخصية فيفروا في اتجاهاتهم وفي طرق كفاحهم . ولم يحاولوا ارهاق افكارهم بالبحث عن طريق جديد بعد ان فشلت هذا الطريق .

وهكذا اصبح هؤلاء السادة يدورون في حلقة مفرغة كما يدور ثور الطاحون يقطع الاميال يوميا وينهك قواه ولكن الخلافة لا تفارق سستمرتات محدودة .

وثورة اول نوفمبر ليست من خلق زعماء هذه الاحزاب ، وانما هي ثورة قامت على سواعد الفلاحين ، وتحت قيادة الشباب الثوري الذي انفصل ايدولوجيا عن الاحزاب البورجوازية ، بعد ان ادرك افلاس بضاعتها واصابة عملتها بالترتيب ، وحافظ على الاتجاه الثوري للطبقات الكادحة . ويخطئ كل من يتوهم ان هذا الشباب الثوري ينتمي الى الطبقة البورجوازية لان هؤلاء الشباب اغلبهم فلاحون انحدروا من القرية ، واكتسبوا شيئا بسيطا من الثقافة يصل اقصاه الى درجة

المتوسطة ، أو نوعا من التجارب واتساع الافق بمشاركتهم في الحرب العالمية الثانية داخل اطار الجيش الفرنسي . وحتى اذا اكتسبوا بعض خصائص البورجوازية فان هذه الخصائص لم تنغلغل ولم تتأصل في نفوسهم ولم تؤثر على طريقة تفكيرهم .

وإذا استعرضنا اسماء بعض هؤلاء الشبان الثوريين رأينا مدى سلامة هذا الرأي : فأحمد بن بللا وأبو ضياف من عائلتين فقيرتين .. وعمران وكريم ، من قرى جرجرة وزيفود يوسف كان حدادا ، ومصطفى بو العيد انحدر ابوه من القرية وسكن مدينة صغيرة وكون ثروة لا بأس بها ، ولكن بما ان الخصائص الطبقيّة البورجوازية لم تتأصل في نفسه فقد باع هو وعائلته كل ما يملك - قبل قيام الثورة بأشهر - ثم اشترى بما باع اسلحة وذخائر وملابس لجيش التحرير واعتصم بجبال اوراس .

ان ثورة اول نوفمبر اعدت في الجبال على سواعد الفلاحين ، ثم نزلت لتفرض سلطتها على المدن ولتلمي على زعماء الاحزاب المعتدلين اللاتوريين شروطها . لقد نزل الفلاح الجزائري بهراونه من قمم الجبال ليسطر الطريق للمثقف ، ولابن العائلة ثم ليسوقهما امامه ويفطرهما الى مسaire التيسار .

وهذه الملحمة التي سنعرضها الان قيلت في بطولات جيش التحرير الوطني الجزائري بولاية اوراس التي تبدو فيها عبقرية الفلاح الجزائري وطاقاته الهائلة واضحة . ان كل القواد او بالاحرى كل الجنود في هذه الولاية ، اذا استثنينا البطلين الخالدين مصطفى بن بوالعيد وشيخاني البشير ، من الفلاحين البسطاء الذين لم يشاركوا قبل قيام الثورة في أي نشاط حزبي .

كان الفلاح الجزائري ينضم الي صفوف جيش التحرير بعضاه ثم سرعان ما يقتل بهذه العصا او بالحجارة جنديا فرنسيا في اشتباك من الاشتباكات ، وياخذ منه بندقيته . ان الشيء الذي جعل اندفاع الثورة الجزائرية قويا واجتيازها للمرحلة الخطيرة على كل الثورات بسلام ، ان الفلاح كان لا يفكر الا في امرين ، اما ان يفتك البندقية من يد الفرنسي او يسقط شهيدا في سبيل الوطن ، دون ان يحوم تفكيره حول كرسي او مركز .

وكما عبر الفلاح الجزائري عن طاقات شعبه فكذلك عبر عن الثورة الجزائرية بفنه وادبه . ولعل اروغ ما سمعت في هذا الموضوع الملحمة الشعبية : « حزب الثوار الله ينصر » التي تعتبر من الروائع الخالدة في تاريخ الادب الشعبي الجزائري . ولقد حدثني القائد « الوردى » عن هذه الملحمة فأخبرني انها ملحنة تلحيننا بسيطا يشبه لحن ملاحم ابن زيد الهلالي والسيد علي جعفر البرمكي . وبساطة لحنها وشعبية تعبيرها جعلتها تنتشر انتشارا واسعا بين صفوف الشعب : فجماعة جيش التحرير عندما تنتهي من المعركة او الاشتباك او الكمين تجتمع في مفاور جبال الجزائر وتتشدها انشادا جماعيا . والاطفال يغنونها في حلقات العابهم . والمرأة تترنم بها وهي تدبر رحاها ، او تهدد طفلها . اني ما قابلت مجاهدا الا وجدته يعرفها ويردد بعض مقطوعاتها .

ويدعي قائل هذه الملحمة « كمال البوقسي » نسبة الى « اولاد بوقسة » احد فروع قبيلة اللماشة التي تعتبر قبيلة من القبائل العظمى في الجزائر والتي اشتهر فرسانها بانقان فن الفروسية والمحافظة على خصائصه الجزائرية . والشاعر شاب في العقد الثالث ، انضم الى صفوف جيش التحرير في الاشهر الاولى للثورة واستشهد في احدى معارك اواخر سنة ١٩٥٦ . وهو اُمي لا يقرأ ولا يكتب . ويقول القائد الوردى ان الشاعر

سجل كل المعارك التي دارت في ولاية اوراس وخاصة في منطقة النماشة من اول يوم انضم فيه الى صفوف الثوار الى ان سقط شهيدا في ميدان الشرف . واما الوقت المناسب لنظم الشاعر كان يجتمع الشوار بعد فراغهم من المعركة ثم يقول احدهم لكامل : انشدنا ، او هات ما عندك . ويطرق الشاعر رأسه في خشوع . ويسود سكون عميق ، ثم سرعان ما يرفع الشاعر رأسه ويرتل المقطوعات حول المعركة الاخيرة التي فرغ هو وزملاؤه منها . وكان المجاهدون يقاطفونه بصيحات الاعجاب وسمات الناثر بادية على وجوههم .

وطريقة انشاد هذه الملحمة جماعية : تبندى الجماعة كلها في انشاد الافتتاحية ، ثم يسكت فريق منها ويسترسل الفريق الاخر في انشاد المقطوعات التالية . وكلما انتهى هذا الفريق من مقطوعة ردد الفريق الاول الافتتاحية . وهكذا الى ان ينتهي الانشاد .

ويسمى عمل المجموعة الاولى بالاصطلاح الشعبي « زراعة أو غناء » ، وعمل المجموعة الثانية « خماسة أو ترجيع » فيقال مثلا : هذا يزرع وهذا يخمس . أو هذا يفني وهذا يرد عليه .

ولم تمكن الظروف سوى من الحصول على مقتطفات متفرقة من هذه الملحمة . الا ان هذه المقطوعات المتفرقة التي التقطتها من افواه المجاهدين الذين استنطعت الاتصال بهم ، تعطينا صورة عن خط سير الملحمة العام ، وعن اسلوبها وطرق تعبيرها ومدى سعة ثقافة قائلها الشعبية .

وها هو الشاعر يذكر لنا معركة « فاساس » ، وهي عبارة عن كمين نصبه الثوار لخطر ضابط في الجيش الفرنسي برتبة « جنرال احتياطي » ويدعى « موريس دو بوا » . اشتهر هذا الجنرال بالشجاعة والذكاء ، فقد كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة ، ويحفظ شيئا من القرآن ويدعي فهم النفسية الجزائرية . وهذا هو الذي جعله يتوهم ان في استطاعته القضاء على الثورة الجزائرية اذا فوضت له السلطة المطلقة في المنطقة التي يراها العرق النابض للثورة . وتطوع الجنرال بستة اشهر يضمن خلالها القضاء على الثوار في منطقة « فينيتيس » ووافقت القيادة الفرنسية على ذلك وعين حاكما عسكريا واداريا لهذه المنطقة . ومضى الشهر الاول والثاني والثالث ولكن دون ان يفي الحاكم الفرنسي بالوعد الذي قطعته للقيادة الفرنسية ، فيجن جنونه ويصمم على الانتقام من الاهالي العزل الذين راهم يؤيدون الشوار ويؤازرونهم ويقدمون لهم كل مساعدة ...

ويفادر الجنرال مركز « فينيتيس » العسكري حاملا معه قائمة بالعناصر الشعبية المخلصة للثورة ، وقائمة اخرى بالعناصر التي أبدت استعدادها للتعاون مع الفرنسيين ، وتقريراً منفصلاً عن الطرق التي يجب على الجيش الفرنسي والادارة الفرنسية اتباعها للقضاء على الثوار .

ولم يكد هذا الحاكم يبتعد اميالا عن المركز تصحبه قافلة عسكرية مكونة من ستة وثلاثين جنديا مزودين بالاسلحة ، حتى اعترضه الثوار ونصبوا له كميناً قتلوا فيه الجنرال واركان حربه ، ثم اسروا الباقين . وسيطروا على كل اسلحة القافلة . ووضعوا ايديهم على حافظلة اوراق الحاكم .

ان نجاح هذا الكمين يعتبر انتصارا عظيما لجيش التحرير في ايامه الاولى . وقد خلده الشاعر الشعبي كمال ، وها هي الابيات المتفرقة التي استنطعت ان اجمعها من افواه الرواة تشهد على ذلك .

يجلس الشاعر الناثر الى زملائه الإبطل حول ابريق الشاي الاخضر مغمورين بأشعة القمر الفضية ، ومناظر الطبيعة الجبلية الجزائرية الخلابة

تحيطهم من كل جانب : اشجار الصنوبر الباسقة وصخور التعرجات
الفرانجية ، ومداخل الكهوف المظلمة . ويطلب الثوار من كمال ان
ينسدهم حول معركة « فاساس » الخالدة . ويرفع كمال رأسه الى
سماة الجزائر الزرقاء ويتخيل نجومها بريق عيون تنبسم اعجابا به
وبزملائه الابطال ، ثم ينطلق في انشاده وعيناه لا تفارقان السماء وكأنه
يريد ان يستمد من نجومها بريقها الخالد ويمزجه بشعره ، حتى تشهد
فيه الاجيال العربية الانية صورة حية لبطولات اجدادهم في الجزائر :
« فيوم فينيس يوم شهد الاهوال ، وغاصت القلوب في صدورهما من
شدة هوله ، وظهر فيه الشجاع من الجبان » :

خطرت فنييس اللي توقع فيها الدحيس
لقلوب تفيص اللي ماشوا شجيع بيان
حزب الثوار الله ينصر

ثم ينتقل الشاعر الى الاشادة بذكر قائد «دائرة فنييس» عمر البوقسي
الذي قاد المعركة : « فالريس عمر حضر يوم فاساس ، فأعطى صدره
للرصاص في صبر ، ومعها شبان صفار ، معه جنود بالحرا ، سقط
منهم البطلان « تركيبة والغربي » شهيدين بعد ان حصدهما نيران المدافع
الرشاشة الفرنسية . »

الريس عممر خطرت فاساس احضر
اعطى صدره للحب اصبر فساه وليدات اصفار
حزب الثوار الله ينصر

معاه وليدات جندي باليونات
تركيه والغربي مات روزاهم حب الرفال .
حزب الثوار الله ينصر

ونلاحظ ان الشاعر يستعمل كلمات فرنسية ك « بايونات : حربة ،
روزاهم : حصدهم ، الرفال : مجموعة من الطلقات التي تنطلق من
الرشاش » . وهي كلمات تتصل كلها بالناحية العسكرية . وما اجمل
تعبير : « وليدات صفار » ، انه تعبير شعبي يدل على الحب المزوج
بالاعجاب ، فكان الشعب الجزائري كله يتكلم على لسان الشاعر من خلال
هذا التعبير .

ثم يتكلم عن الحاكم الفرنسي القليل : « فمسيو موريس طلب المجيء
الى فنييس متطوعا ويتوعددهم (اي الثوار) ويقول : سوف اقضي على
« الفلاقة » (وصف يطلقه الفرنسيون على الثوار ومعناه : المتمردين) .
ولكن عندما عثروا عليه خفر عينيه كما تخفرهما العروس في مخدعها .
مسيو موريس طالب فولنتي فنييس

حزب الثوار الله ينصر

يتحلف فيهم قال الفلاقة نقضيههم
كطاحوا بييه
حزب الثوار الله ينصر

كطاحوا بييه عاد يذبل في عينيه
العسكر هذا واسهر بييه افروخه وحامت الاطيار
حزب الثوار الله ينصر

ونلاحظ في هذه المقطوعة مدى عمق السخرية الشعبية وحدثها ،
فالجترال الفرنسي هدد ووعد الثوار شرا ، ولكن عندما وقع بين ايدي
الثوار خفر عينيه كالعروس في ليلة زفافها .

ويشخص الشاعر بطولة احد ابطال الثورة الخالدين يسمى « حم
الخضر » ويتدخل الخيال الشعبي فيضفي على هذه البطولة جمالا رائعا .
« فيوم (حسي خليفه) حضره ابن امرأة سوداء ينعى الاخضر وترك

الاعداء جيفة ، وجمل من كل شعب مستشفى لجثثهم . انه « حم »
جمع في يده بين البطولة والسلاح الجديد ، ان قلبه من حديد وفي سبيل
وطنه يلقي بنفسه في النار . ما اجمل يديه وهما تمسكان ببندقية نواحة
ذات اجزاء سليمة موسى عليها من مصنعا (أي فكانها مصنوعة خصيصا
لهذا البطل) . وعندما صمم الاعداء على نصب كمين له ، وقال لهم
رئيسهم : احضروه ، ذهبوا اليه ووجدوه في عربته ولكن جنوا ولم
يجرؤوا على اطلاق عيار ناري واحد ، وهكذا رجعوا ببنادقهم حبالى لم
تمس ذخيرتها » :

انهار حس خليفه راو لخضر داواه وصيفه
خلاههم جيفه كل شعبة فيها اسبطار
حزب الثوار الله ينصر

حسم الصييد بطوله واسلاح جديد
والقلب احديد على وطنه يزوم للنار
حزب الثوار الله ينصر

انهار اللحصوه والكافر قالهم جيبوه
واشوي لفسوه رام ودوا الدفرات اعشار
حزب الثوار الله ينصر

(الدفرات : البندقيات . اعشار : حبالى تقال للحيوان فقط ..)

ما اجمل تعابير : « كل شعبة فيها اسبطار . يزوم للنار . والدفرات
اعشار . » انها تحتوي على شيء لا يوجد في الادب الرسمي ، فيها
بساطة وسذاجة جميلة ، وتشابيه قريبة من الواقع وبعيدة عن كل
تعقيد وتجريد .

ويمجد الشاعر بطولة قائد آخر فيقول : « ان ساعي الشجاع احاطه
جيش الاعداء من كل جانب ، ولكنه ابى ان يستسلم ، أو يستكين ، ويا
لجنون الكفار المضايح (من ضبع) الذين ينتظرون منا الاستسلام ، انهم
مساكين يتوهمون ان معركة مع الثوار تشبه الجلوس في حانة المحطة .
ويا لبطولة « ساعي » انه ماسك بمدفع رشاش ، وبطلقة واحدة يسقط
اثنين . مساكين رفاق العجوز (لقب شعبي يطلق على فرنسا) انهم
يظنونها فدحا من النيذ » :

ساعي السجيع والسر كل ما باش يطيع
الكفرة مضايح حسبوها تيرنت لفار
حزب الثوار الله ينصر

في يد مطربوز بالضربة تطيح بالسوز
ارفاقه العجوز حسبوها طاسة ديفان
حزب الثوار الله ينصر

فتعابير « حسبوها تيرنة لفار : أي حانة المحطة . حسبوها طاسة
ديفان : أي قدح من الخمر . وتلقيب فرنسا العجوز التي أكل الدهر
عليها وشرب » كلها تحتوي على السخرية الشعبية الحادة المزوجة بنوع
من الاعجاب بقوة الشعب وبنوع من الاحساس بنفوق الثوار على جنود
الاستعمار في الشجاعة والاقدام والمهارة العسكرية .

ويتكلم الشاعر الشعبي عن الاحداث السياسية في القطر الشقيق ،
تونس ، فيقول : « يا فرنسا الخبيثة لقد أزاح الثوار الجزائريون الستار
عن مؤامرتك ، فتونس خنت العهد معها ، اما الجزائر فقد نبهت للخطر
وتحاشت المكيدة » :

فرنسنا الخبيثة فكراتك راح فافوا بيها
تونسس خنتيها الجزائر فاقت بلفسار
حزب الثوار الله ينصر